
بسم الله الرحمن الرحيم
مقال بعنوان
تراجم ذوي الهيئات
لفضيلة الدكتور
محمد بن موسى
الشريف
الصفحة
الرسمية
فضيلة الدكتور
محمد بن موسى الشريف

بسم اللّه الرحمن الرحيم

تراجم ذوي الهيئات

إن الله تبارك وتعالى قد خص **أمة الإسلام** من بين الأمم بخصائص ليست لغيرها من أمم الأرض اليوم، فهي **أمة الحق** وما عداها من الأمم على الباطل والضلال والكفر، وهي **الأمة الوحيدة التي تحسن ذكر الله تعالى** فقد خصنا -تعالى- بتحميده وتكبيره وتهليله، فألسن مئات الملايين منها تلهج بالذكر آناء الليل وأطراف النهار، بينما لا نجد أمة على الأرض اليوم تعلم من ذكر الله ما تعلم هذه الأمة، وتلهج بذكره ما تلهج هذ الأمة بل ولا عشر معشارها.

ولئن ذهبت لأعدد ما خصنا الله -تعالى- به من بين الأمم من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق لطال بي الأمر ولما أتيت به على وجهه لكن حسبي من ذلك الإشارة، وأما العبارة فلا توفي بما أريد بيانه ولا تكاد.

ومما خصنا الله -تعالى- به علم تقويم الرجال، مما سماه سلفنا **علم الجرح والتعديل**.

فما من رجل تصدر لبث العلم أو الدعوة إلى الله –تعالى-أو نصب نفسه مرشداً ومزكياً للأجيال، أو جاهد في سبيل الله عز وجل إلا وعُلِمَتْ سيرته، وَوُقِفَ على طريقته، وعُرفت أخباره، وقُوِّمت أفعاله وأقواله، وليس هذا من باب المبالغة بل إن

كل من نظر في كتب الجرح والتعديل، وكتب التواريخ والتراجم علم حقيقة التقرير الذي قررته، وأدرك صدق ما بينته.

وهذا علم خاص بهذه الأمة خالص لها، فلا أعلم أمة من الأمم قديماً ولا حديثاً سلكت هذا المسلك، أو عرفت هذه الطريقة، وهذا فضل الله -تعالى- يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد وضع أسلافنا لتقويم الرجال موازين كموازين الذهب بل هي أدق، وجعلوا لعلمهم هذا قواعد وضوابط حتى لا يظلموا أحداً من مقدمي الأمة ولا يحيفوا عليه، ولا يرفعوه فوق قدره ولا ينزلوه عن منزلته التي تنبغي له، وسلكوا في كل ذلك طرائق دقيقة، ومسالك علمية بعيدة عن المداهنة أو المبالغة، ووضعوا المؤلفات العظام، والكتب الجليلة الفخيمة التي بقيت ميزاناً في تقويم الرجال، ومنارة في بيان حالهم، ومرشداً في الحكم على أقوالهم وأفعالهم في كل زمان ومكان، فما من عَلَمٍ من الأعلام إلا ونحن من طريقته على بينة، ولنا في قبول أقواله وأعماله ميزان دقيق لا يخيس ولا يبخس، فلا يُظلم أحدٌ إلا ويسارع إليه الإنصاف، ولا يغمط حق أحد إلا ويدركه العدل، **فلا يُرفع أحد فوق منزلته التي تنبغي له، ولا ينزل دون مرتبته التي هي له،** وكل ذلك إنما يقع بعد نظر فاحص، وقواعد ضابطة، ومسالك هادية.

وانظروا إن شئتم كتاب **"التاريخ الكبير"** للإمام البخاري، وكتاب **"الجرح والتعديل"** لابن أبي حاتم، وكتاب **"سؤالات يحيى بن معين"**، وكتاب **"الميزان"** للحافظ الذهبي، ومستدركه **"لسان الميزان"** للحافظ ابن حجر، وكتاب **"تهذيب الكمال"** للحافظ المزي، و**"تهذيب تهذيب الكمال"** للحافظ ابن حجر، ومختصره: **"التقريب"** للحافظ ابن حجر أيضاً، وانظروا في **"سير أعلام النبلاء"** و**"تاريخ الإسلام"** وكلاهما للحافظ الذهبي، وكتاب **"هدي الساري"** الذي جعله الحافظ ابن

حجر مقدمة لكتابه العظيم **"فتح الباري"**، وكتب أخرى كثيرة تند عن الحصر وتخرج عن قدرة العاد على العد، من الكتب المطبوعة والمخطوطة والمفقودة، التي تدل على قدرة مدهشة فائقة في تقويم الرجال بأحسن عبارة، وأجل قواعد وضوابط في الجملة، وفي الغالب، وما كان من ذلك خارجاً عن سنن العدل، وطرائق الإنصاف وُجد من الأئمة من يرده، ويفنده فلا يقبله، ويدل على خطئه وخطله.

وفي عصرنا هذا غلب على الناس مقاييس في التقويم والنظر إلى حال الرجال غير مرضية، حتى صاروا إلى فريقين، لكن -بحمد الله- الوسط موجود، غير أن أصحابه قلة، والغلبة للطرفين، وهذا الذي استقر عليه الأمر في عصرنا.

أما أحد الطرفين:

- **فقوم زعموا أن الرجل إذا عُرف ببدعة أو زلة فإنه يهدر فلا يزكى، ويرفض فلا يقبل فيه ثناء ولا مدح:**

واستبد بهذه الطريقة في التقويم قوم يُدعون بـ**"المداخلة"** أو **"الجامية"** ضلوا طريق السلف في الجرح والتعديل، وإن زعموا أنهم هم المصيبون، وغلوا حتى صاروا من جملة المبتدعة الضالين.

وقد ضلوا بسبب أمور منها:

1. إنكارهم أن يُقوّم الرجل بجملة حسناته وسيئاته، ومزاياه ونقائصه، -كما هو عمل أسلافنا- بل زعموا أنه لا تذكر له حسنات ولا مزايا، ويُهدر عمله وجهده فلا يقبل في جملة الثقات إن غلبت حسناته سيئاته، على ما قرره سلفنا من أهل الجرح والتعديل بقواعدهم وضوابطهم.

2. **عدوا بعض الأقوال والأعمال بِدَعاً -وليس كثير منها كما زعموا-** وركبوا رأسهم فلا يقبلون مراجعةً ولا تحريراً ولا نقداً لما قرروه، ولَجّوا في طغيانهم يعمهون، فبدعوا جماعاتٍ من أهل العلم والفضل والسابقة، وأهدروا أعمالهم وأقوالهم، وأنزلوهم من منزلتهم اللائقة بهم، ونشروا في الناس ما قرروه وزعموه.

3. **زعموا أنهم على طريق السلف ومن عداهم فليس على هَدْيِ السلف.**

فيا ليت شعري، من أين لهم أنهم على طريقة أسلافنا الماضين، وعلى هدي علماء الجرح والتعديل؟

ألهم بذلك كتاب وعهد؟

أم شهد لهم أعلام الأمة وسلّموا لهم؟

أم جُعلوا قيمين على الناس قائمين عليهم حافظين؟

ومن العجيب أن علماء الأمة ومُقَدَّمِيهَا ودعاتها وفضلاءها ووجهاءها يكادون يكونون عليهم لساناً واحداً في ذم عملهم، وتقبيح صنيعهم، وتفنيد باطلهم، ثم هم بعد ذلك كله لا يرعوون، ولا يهتدون سبيلاً، ولا يراجعون أنفسهم، ولا يقبلون نصحاً، بل هم في طغيانهم يعمهون.

ألا وإن أقبح ما صنعوه، و**من أسوأ ما سلكوه أنهم يَسْتَعْدُونَ السلطان على العلماء والصالحين، فتشبهوا بذلك بالمعتزلة إخوانهم في الضلال والابتداع، نعوذ بالله من الخذلان.**

وما يثلج الصدر ويسر الخاطر أن عملهم هذا غير مقبول من المسلمين، وليس بِمَرْضِيٍّ عند العلماء والدعاة والوجهاء والصالحين، **فمات عملهم قبل موتهم**، وضل سعيهم، وذهب جهدهم أدراج الرياح، ولله الحمد والمنة.

أما الطرف الآخر:

- **فقوم بالغوا في المدح والثناء، وأسرفوا في التبجيل والتعظيم، وكالوا من ذلك بمكيال غير قويم، ولا يستند إلى عمل السلف الماضين، القائمين بالجرح والتعديل صيانة لجانب الشرع الشريف.**

واستندوا في ذلك إلى مقولات منها:

1. **الاكتفاء بذكر المحاسن وغض الطرف عن المساوئ، وذلك لعدم الحاجة لإجراء قواعد الجرح والتعديل على غير رواة الحديث النبوي الشريف.**

وهذا الذي ذهبوا إليه يناقض صنيع أسلافنا الذين جرَّحوا وعدَّلوا جماعاتٍ من العلماء والدعاة والفضلاء، ليسوا من أهل الرواية ولا من رجال الحديث.

فهل كان الحارث المحاسبي محدثاً؟

وهل كان الإمام الغزالي من أهل الحديث؟

وهل كان ابن رشد الحفيد من رجال الرواية؟

وهل كان محمد بن تومرت من رواة الأحاديث؟

والناظر إلى صنيع الإمام الذهبي في **"سير أعلام النبلاء"** و**"الميزان"** عَرَفَ ما قلته، فقد ساق جملة كبيرة من الأعلام من غير المُحَدِّثِينَ، وذكر بالتفصيل ما لهم وما عليهم، وخرج برأيٍ فيهم كان فيه مُنْصِفاً إلى حدٍّ كبيرٍ.

2. **عدم ذكر مساوئ الأموات:**

وهــذا لعمر الــحق عجيب وغـريــب!!

وهل كان صنيع أهل الجرح والتعديل إلا ذكر المحاسن والمساوئ؟

وذكر المزايا والنقائص؟

ثم الموازنة بينهما، فمن غلبت حسناته سيئاته زُكِّيَ وجَازَ القَنْطَرَةَ، وإلا يكن كذلك جرحوه واتهموه وأسقطوا منزلته.

ثم إنهم في هذا قد استندوا إلى حديث: **"اذكروا محاسن موتاكم"، ولئن صح الحديث فلم يصح لهم الاستدلال**.

فإن الموتى الذين ليس لهم تعلق بالشأن العام، ولم يكن لهم منزلة ولا مكانة في المجتمع مرشدة وهادية، ولم يتركوا آثاراً وأعمالاً وأقوالاً تفتقر إلى تقويم، ولم يقودوا جماعات من الناس ولم يؤثروا فيهم، إن الموتى الذين هم على هذه الشاكلة صح فيهم أن نذكر حسناتهم ويُعرض عن سيئاتهم التي لا يتبعهم فيها أحد، **وليسوا محل قدوة**.

أما الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس، وكان لهم أتباع كثر، وتركوا أقوالاً وأعمالاً كثيرة، فإن هؤلاء إن ذكرت حسناتهم فقط وتركت مساوئهم فلم تذكر كان ذلك تلبيساً على العوام، وخلطاً في الأفهام، وتهويناً لما هو عظيم، وحقيق وجدير بالنظر والتقويم.

3. جلائل الأعمال التي صنعوها:

والحامل أيضاً لهذا الطرف على أن يغض الطرف عن مساوئ ذوي الهيئات أنه قد كان لهم أعمال جليلة، وصدع بالحق، وهداية للناس، فلا يصح أن يجرحوا ولا أن يذكروا بشيء فيه غض من منزلتهم ومكانتهم، **وهذا فهم عجيب، مخالف لما كان عليه السلف والخلف من تقويم الرجال**.

وانظروا إن شئتم إلى ترجمة عَلَمَيْنِ كان لهما من العمل والدعوة إلى الله تعالى والمصنفات الجليلة والمكانة الرفيعة العلية ما يتضاءل معه ما لأكثر أعلام أهل عصرنا من العلم والعمل، ألا وهما:

- **حـجـة الإسـلام الـغزالـي،**
- **وشـيـخ الإسـلام ابـن تـيـمـيـة.**

وهما مَن هما في الفضل وعظم التأثير، وكثرة الأتباع، وجلالة المنزلة، وقوة الحجة، وسعة دائرة العلم، فهل أدى بهم كل ذلك إلى أن تُذكر حسناتهم ومزاياهم ويُغض الطَّرْفُ عن نقائصهم ومساوئهم؟ لا، فقد وردت تراجمهم على الجادة عند المصنفين فقد عظموهما وأنزلوهما المنزلة اللائقة بهما لكنهما وضحا -على أحسن ما يكون التوضيح- كل ما اعترى مسيرتهما من نقائص أو مساوئ، وانظروا إلى صنيع الإمام الذهبي لما ترجم لهما في **"سير أعلام النبلاء"** وفي **"معجمه"**، وكذلك إلى صنيع الإمام ابن حجر لما ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية في **"الدرر الكامنة"**.

فهذا المنهج هو الصحيح المرضي إن شاء الله -تعالى- وفيه يتجلى الإنصاف في أحسن صوره.

فإذا قارنا ذلك بما يحدث في زماننا هذا من تراجم لذوي الهيئات الأحياء منهم والأموات لا نكاد نجد إلا ثناء مطلقاً، وتزكية شاملة من قبل أولئك الذين سلكوا الطرف الآخر: طريق التزكية المحضة وغض الطرف عن المساوئ، وليتها كانت مساوئ تغتفر أو يمكن أن تتجاوز فلا تذكر بل هي في كثير من الأحيان عظائم من الأقوال والأفعال، فتساق الترجمة على هيئة غريبة، لا يذكر فيها شيء من المساوئ إلا بإشارة بعيدة فيظن القارئ أن تلك الأعمال داخلة في دائرة القبول وأنها مما يسوغ فيه الخلاف.

وهذا تلبيس على الناشئة والأغرار، وصد عن المنهج الصحيح في التقويم والموازنة بين الحسنات والسيئات، والمزايا والنقائص الذي سلكه سلفنا وأصّلوه وقعّدوه وضبطوه.

وصار الذي يريد أن يبين الحق ويذكر ما للرجل وما عليه صيانةً لأجيال المسلمين من الاغترار، عرضة للسهام، وألسنة المنكرين عليه حداد.

مـالــك ولـلـرجـل وقـد أفضـى إلـى مـا قـدم؟!!

لكن يا قوم إن الرجل له أعمال وأقوال صعبة ولا بد من بيانها صيانة لجانب الشرع المطهر وحماية للأجيال، فيُحتج عليك بما سبق أن ذكرتُ آنفاً، فيضيع الحق في خضم هذا الإنكار الذي ليس له وجه ولا حق.

وأجدني هاهنا مضطراً لذكر رجل توفاه الله -تعالى- منذ شهور، فسالت أقلام كثير من الصالحين من العلماء والدعاة ثناء عليه وإعجاباً بمسلكه، ألا وهو **الدكتور حسن الترابي -رحمه الله تعالى-** وهذا صنيع من لم يعرف صنيع السلف مع أمثال **د.حسن الترابي**.

وأريد أن أوضح في هذا المقام أني لست مع صنيع المداخلة الجامية المجرحين لكل أحد وبكل سبب، ولست أيضاً مع صنيع المزكين بإطلاق، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

وسأسوق هاهنا على عجل أهم المآخذ على د.حسن الترابي بإجمال وإيجاز:

1. أُخذ عليه أقوال غير مقبولة في ميزان الشرع:

والرجل إذا تكلم - في كثير من الأحيان- أظهر الاستخفاف بأقوال الآخرين وأعمالهم **علـى وجــه مـسـتـفـز**، وهذا مما زاد النقمة عليه، وكثير من هذه الأقوال خاض بها في بحر الشريعة على غير هدى **فـكـثـر خـطـؤه وزلـلـه**.

وقد تكفل العلماء ببيانها فمنهم من أسرف في ذمه ومنهم من اعتدل، والله بما صنع وصنعوا عليم وخبير، وهذه الأقوال مبثوثة معلومة وليس السياق صالحاً لإيرادها ونقدها فقد وُفيت في ظني إيراداً ونقداً، ويطول الكلام بذكرها إطالة تفضي إلى نسيان المقصود من كتابة هذه المقالة.

2. وأُخذ عليه أعمال كان على رأسها عداوه الغريب وكيده العجيب لحكومة السودان التي كان على رأس المخططين لمجيئها:

وبسبب تلك العداوة حرَّض عليها بما لا مزيد عليه من التحريض وأدخلها في حروب، وسُفكت دماء، وضاعت أموال، وساءت ظنون الناس في بقاء دولة السودان واستمرارها، بل نشأ على إثر هذا النزاع ضياع ثلث السودان وتسليمه إلى الصليبيين واليهود، **والعجيب أن ما صنعه ليس بأمر مكتوم، بل هو ذائع مشهور معلوم.**

فكان يَسَعُ المترجمين له بعد موته أن يذكروا محاسنه، ويبينوا فضائله، ويسوقوا جلائل أعماله وأقواله وآثاره، ثم يتبعوها بعد ذلك بأهم المآخذ عليه من أقواله وأفعاله وأحواله، سالكين سبيل الإنصاف، مبتعدين عن التأويل البعيد وغير السائغ، متلمسين له الأعذار فيما يعذر فيه، آخذين بقوله تعالى: **"عـرف بـعـضـه وأعـرض عــن بـعـض"**، لا يغمطونه حقه لكن في الوقت نفسه لا ينزلونه فوق منزلته، فإنهم إن صنعوا ذلك وافقوا أئمة الجرح والتعديل سلفاً وخلفاً في طريقتهم، واتبعوا طريق الإنصاف، وأمنوا من مغبة التعديل المطلق أو الجرح المطلق، وفي الوقت نفسه صانوا

الأجيال الناشئة والقادمة من الخلط والتلبيس الناشئين من التزكية المطلقة وغض الطرف عن العظائم بدعوى الاجتهاد وأن له أجر المجتهدين!!

وهذا يا قوم هو الوسط بين الطرفين، والجادة بين بُنَيَّاتِ الطُّرُقِ، والحجة لسالك المحجة، والطريق القويم، والصراط المستقيم، والصنيع الذي ليس وراءه مؤاخذة شرعية، ولا سؤال في موقف الحساب، إن شاء الله تعالى.

والحاجة ماسة لمراجعة كل طرف نفسه، وتقويمه صنيعه الذي لا يوافقه عليه عظماء الملة وكبراء الأمة سلفاً وخلفاً؛ والمسألة تحتمل البسط الطويل، وإيراد الأقوال على وجهها، والنقل من كتب أئمة الجرح والتعديل ما يزيد هذه المقالة توضيحاً، لكن حسبي ما أوردته في هذه المقالة، والله تعالى المستعان، وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.